مسند زينب عن فاطمة (عليهما السلام)

قراءة في المضمون السياسي

الشيخ د . جعفر المهاجر

يجب علينا اليوم أكثر من أي وقت مضى الحثّ والتأكيد على التأمل في سيرة وأعمال المصطفين الأخيار من أهل بيت النبوّة . ليس فقط إحياءً لأمرهم ، وإن يكن ذلك أمراً مندوباً إليه : " أحيوا أمرنا " . وليس فقط فرحاً لفرحهم وحزناً لحزنهم ، وإن يكن ذلك في نفسه أمراً حسناً : " شيعتنا منّا خُلقوا من فاضل طينتنا يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا " ، ولكن فوق ذلك كلّه ابتغاء اكتشاف واستيعاب المبادئ المُحرّكة ، التي كانت وراء مواقفهم من الأزمات الكبرى . لتكون منارة لنا وهدى في الشدائد .

هناك شعور عام عند المسلمين اليوم ، كل المسلمين ، من " طنجة " إلى " تركستان الشرقية " ، أن المسلمين في كل الدنيا هم في دائرة الخطر ، وأنهم مُستهدفون ثقافياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً . وهذا شعور صحيح ، لا يفتقر إلى ما يسوغه . لكنني أتساءل : أي فترة من فترات تاريخ المسلمين لم تكن دقيقة حافلة بالمخاطر .

اليوم الذي تلا التحاق رسول الله (ص) بالرفيق الأعلى ، وشهد ذلك الصراع المحموم على السلطة ، وانفجرت فيه العصبيّات الجاهلية . ألم يكن فترة دقيقة حافلة بالمخاطر ؟

الانقلاب الجذري على الإسلام الذي حوّل مفهوم السلطة فيه إلى مُلك وراثي ، خالٍ من أي فكر أو قيمة سياسيّة . وجّه قوة الإسلام وحيويته إلى الفتوحات ابتغاء الاستيلاء على الأرض والبشر والثروة . كما وجّه طاقة الإسلام المعنويّة في الداخل إلى قمع الإنسان المسلم وخداعه عن حقوقه تحت عنوان أو غيره .

إنفتاح الشّره الغربي على أرض وخيرات المسلمين ، بشكل حملات عسكريّة مُنحت اسم (الحروب الصليبيّة) ، استمرّت زهاء مائتي سنة . دمّرت كل ما بناه الإنسان المسلم ماديّاً ومعنوياً .

إنفتاح الوحشيّة المغوليّة ، وكأنها في تنسيق شيطاني مع الشره الغربي ، لتدمّر ما لم تصل إليه يداه ، من تركستان إلى حدود مصر .

حكم الأرقّاء الوحشي ، المُسمّون تاريخياً بالمماليك ، الذي طال زهاء ثلاثة قرون ، وانتزع من الإنسان القليل ممّا بقي له ، ابتداءً من الأراضي الزراعية الخصبة ، وانتهاءً بحقوقه الإنسانية .

الحكم العثماني الظالم الغاشم ، الذي طال هو الآخر زهاء الأربعة قرون .

الإستعمار الأوروبي ، الذي بسط سلطانه على كل ذرّة تراب من أرض الإسلام . وأنزل بها شر تقسيم يمكن أن ينزل بأُمّة . بحيث أنه نال وجدان الإنسان المسلم ، بخلق

ولاءات عصبويّـة ، وظيفتها الوحيدة أن تحلّ محل الولاء الجامع . الذي لم يُثبت أبداً أنـه ، من وجهة نظر وظيفيّة ، بالمستوى اللائق لحماية الأمّـة . لكنه ، على الأقل ، كان رمــزاً حيّـاً في النفوس .

فشل الأمّـة في منـع المشـروع الصهيوني على أرض فلسطين . ومن ثـمّ تداعياتـــه الكثيرة العالقة حتى اليوم .

(٢)

ما هـو السرّ وراء هذا المسـار الانحداري ؟

الجـواب يمكـن تشـخيصه إجمـالاً فـي أمـر واحـد ، هـو : غـياب الأمّـة ، وحضـور العصبيّـات .

"حضور الأمّـة " يعني ، على مستوى المفهوم : حضـور الذات الجامعة بمـا هــي مؤسسـة أعلى من مجموع أفرادها ، وأيضاً أعلـى من مجموع مكوناتهـا الأقواميّة والمذهبـية والعشائريّة والمناطقية .... الخ. وعلى المستوى العملي ، أن تكون سياسياً مصدر السلطة . وأن تكون مصلحتها كمؤسسـة هي المرعيّـة ، بحيث أن المؤسسـة تُنتج مؤسسات ذات وظيفة رعائية (كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته) . " كل" هنا تعنى الأفراد بوصفهم أعضاء وليس بوصفهم ذوات . أما المسـؤولية فهي محدّدة في التشريع الناظم للعلاقات داخل الأمّـة . وفي رأسـهـا الجهاد والاجتهاد .

(٣)

مشروع الأمّـة كان قد قطع شوطاً حسـناً عند وفاة رسول الله (ص) . بفضل المنـاخ الفكـري الـذي ثـبـّتـه القـرآن ، ومن أبـرز ما فيه نفـي رابطة الـدم بوصفهـا ناظماً اجتماعيـاً . والإبقاء عليها لُحمة اجتماعية . " وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " . السياسـة النبويّة البعيدة المدى كان لها دور أسـاسـي هنا . نذكر كأمثلة : المركز الحضاري " المدينة " بما لـه مــن ثقل ومعنى سـياســي ، حُـرمـة التعرّب بعـد الهجـرة ، أي الانكفـاء إلى الصيغـة البدويّـة بعد الانضواء في المشروع التحضيري ، توحيد التشريع الناظم للعلاقات .

لاشك أن ما حدث في اليوم التالي لوفاة رسول الله (ص) كـان نكسة كبيرة في المناخ الإيجابي هذا . ذلك أنه نفخ الروح في العصبيات القبليّة فعادت بلحظة إلى الحياة . ومع ذلـك فإننا نعتقد أن هذه النكسة على خطورتها كانت أمراً عارضاً بفضل القرب الزماني من النبوّة . الدليل على ذلك الهبّة الشعبية العامّة التي انبعثت تحت شعار إصلاح الخلل السياسي الذي نشـأ بسبب سياسة عثمان ، وحملت الإمام علي (ع) إلى السلطة . أود هنا أن أُلفت النظر إلى أمر في غاية الأهمية ، هو أنه في ظل الوضع الجديد ظهرت لغة سياسيّة جديدة ، تُناقض تماماً لغـة يوم السقيفة . من ذلك أن الإمام خاطب الثائرين بعد أن قُتل عثمان قائلاً : " ... الواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعدما يموت إمامهم أو يُقتل .... أن لا يعملوا عملاً ، ولا يُحدثوا حدثاً ، ولا يُقدّموا يداً ولا رجلاً ويُبدوا شيئاً قبل أن يختاروا لأنفسـهم إمامـاً عفيفـاً عالماً " (مستدرك الوسائل : ١ / ١٤) . وقد كرّر الإمام المبدأ نفسه عندما اتجـه إليه النـاس يسـألونه عن آليّة نقل السلطة ، فقال : " أيها الناس إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا مَن أمّرتم " . هذا كلام جديد على مسامع الناس ، ينطوي على أمرين أساسيين هما : أصالة العمل

السياسي (يجب) ، وأن اختيار الحاكم هو حصراً من حق الأمّة بما هي أُمّة . والجدير بالذكر أن هذا المفهوم بشقّيه وصل عبر الممارسة العلويّة للسلطة في الكوفة إلى الجماهير وأصبح من اللغة اليوميّة . الدليل على ذلك نجده في الرسائل التي خاطب بها أهل الكوفة الإمام الحسين (ع) يستدعونه للقدوم إليهم ، ومنها نص ذو أهميّة بالغة يقول : " الذي انتزى على هذه الأمّة فابتزّها أمرها وتأمّر عليها بغير رضاها " هذا تكرار أمين لخطاب الإمام علي (ع) السابق الذكر يستحضر مفهومي أصالة العمل السياسي ، وأنه حصراً من حق الأمة .

(٤)

في المقابل كان هناك سعي محموم وحثيث معاكس لانتزاع هذه المكاسب . قادها مؤسس الحكم الأموي ومؤسس مبدأ توارث السلطة في الإسلام بكفاءة عالية ، يؤازره جهاز كبير ، على رأسه مَن يضع الأحاديث بما يتناسب مع المرمى والهدف . ثم يكون من مهمّة جيش ممن سُمّوا (القصّاصين) أن ينشروا أفكاراً بعينها بين الناس . هذه الأفكار منها ما يدخل في باب العقيدة ، ومنها أحكام شرعية وتعاليم أخلاقية . في مركز هذه المنظومة الفكرية ـ الأخلاقية ـ الشرعية يجد المتأمل فكرة أساسية بُذل جهد خاص لترويجها ، تلك هي القائلة أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى ، وأن دور الإنسان هو الخضوع للإرادة الإلهية . الفكرة تبدو بريئة ، بل وعرفانية . وذلك أخبث ما فيها . إنها تستدرّ العاطفة الدينية الساذجة لنفي حريّة الإنسان . فإذا كان كل ما يحدث إنما هو بإرادة ربانيّة ، إذن فمن العبث السعي إلى تغييره ، بل هو اعتراض على إرادة الباري سبحانه . هذا ينتهي بكل بساطة إلى نفي أصالة العمل السياسي وحق الأمّة في الاختيار . وهناك كمّ هائل من الأحاديث وُضع فقط للدعوة إلى أخلاقيات من مثل الصبر والتوكل على الله وعدم شق عصا المسلمين والطاعة لأولياء الأمر مهما كانوا .... الخ . وذلك غاية ما يتمنّاه كل الطواغيت .

من هنا كانت بداية الشرخ الكبير في جسم الأمّة . والشرخ اتسع وما يزال يتسع . مترافقاً مع ذلك المسار الانحداري ، الذي بدأنا بوصفه هذه المراجعة لهمومنا في مسارها التاريخي . وهو مسار ليس من الصعب على أي متأمل حصيف أن يصل به إلى كوارث الحاضر .

(٥)

هو ذا ، فيما نرى ، قلب الأزمة التي شكّلت القاعدة لنهضة الإمام الحسين (ع) ، وكان لأخته زينب الكبرى دوراً رئيساً في إيصال مضمونها للجمهور في " العراق " و " الشام " و " الحجاز " و " مصر " . طبعاً يستطيع القارئ العارف أن يقف على أسباب إضافيّة ، تتصل بالسلوك الشخصي للحاكمين . وهي ، ولا ريب ، أسباب وجيهة جداً . لكن لا سبيل للشك في أن إزاحة الأمّة عن موقعها السياسي ، وتشويه بُنيتها الفكريّة ، كما أشرنا ، هو الذي أتاح لأمثال هؤلاء الوصول إلى قمّة السلطة . ليُنزلوا ما أنزلوه بالأمّة وفكرها .

(٦)

إن أهميّة ما تُسنده زينب عن أمها (ع) ليست في مجرّد النقل . خصوصاً وأ ن عنصر النقل ، إذ نُخضعه لقواعد تحمّل الحديث ، غير متين . لأنها كانت عند وفاة السيّدة الزهراء (ع) في حدود الربعة أو الخامسة ، أي أدنى من سن التحمّل . إنه في تبنّي

مضمون ما يُسنده . لأن المحدّث إذ ينقل عن المعصوم لا يكون صِرف ناقل ، خبره عند نفسه قابل للصدق والكذب . بل هو أمر لازم وفقاً لمضمونه .

إذن فما تُسنده زينب عن فاطمة (ع) هو في الحقيقة مدخل إلى وجدانها . حيث تبدو لنا العلاقة المتينة بين المضمون والسيرة : مضمون أحاديث المُسنَد، وسيرة وأعمال السيّدة زينب (ع) . أخصّ دورها التاريخي بعد يوم " كربلاء " .

(٧)

سنُشير فيما يلي إشارةً إلى الأحاديث التي روتها زينب عن أمها (ع) ، مع ذكر مصادرها ، ليرجع إليها القارئ . ثم نُعلّق عليها بما نراه مناسباً .

١ ـ حديث في معنى فدك . رواه في (كتاب مَن لا يحضره الفقيه : ٣ / ٥٦٧). والعنوان مُقتبَس من نص الحديث كما رواه . لكن القارئ سيلاحظ بسرعة أن نص الحديث وإن بدأ بـ " قالت فاطمة في خطبتها في معنى فدك " لكنه خالٍ تماماً من أي إشارة إلى قضيّة فدك المعروفة . وأنه أقرب إلى أن يكون بياناً لمقاصد الإسلام وأحكامه . ونلاحظ أيضاً أن الشيخ الصّدوق قد أورد الحديث بسنده نفسه وبنصّه تقريباً في كتابه الآخَر(علل الشرائع / ٢٤٨) دون أن يبدأه هنا بما بدأ به هناك ، فقال : " قالت فاطمة في خطبتها". والأمر هيّن ، إذ لا ريب أن الخطبة هي في سياق احتجاج السيّدة الزهراء (ع) على حقها في فدك . أضف إلى ذلك أن المجلسي أورد الخطبة نفسها في (بحار الأنوار : ٦ / ١٠٧) نقلاً عن (علل الشرائع) بالنص الوارد في (كتاب مَن لا يحضره الفقيه) . ممّا يُفهَم أن الاختلاف هو من تصرّف النسّاخ .

علينا أن نتأمّل مليّاً في مغزى خلوّ الخطبة من الإشارة إشارةً مباشرة إلى قضيّة فدك . مع أنها بحسب العنوان ، وما هو ثابت على كل حال ، وخصوصاً مجمل الظروف المحيطة بإلقائها ، " في معنى فدك " . فما هو " معنى فدك " هذا ؟

من المعلوم أن " فدك " كانت قرية أ و مزرعة كبيرة ، غير بعيدة كثيراً عن " المدينة" . كانت قبل الإسلام ملكاً لجماعة من اليهود . فلما ظهرت إمارات ظهور الإسلام صالحوا رسول الله عليها . فكانت ملكاً له ، لأنها من الأنفال ، التي لم يوجَف عليها بخيل و لا ركاب . ثم نحلها الرسول لابنته فاطمة ، فكانت في يدها حتى وفاته ، حيث انتزعها منها أبو بكر (رض) بحجّة أنها ملك عام " صدقة " . وهذا يتنافى مع سيرة الرسول في شأنها . إذ لو انها كانت ملكاً عاماً لكان هو أولى بأن يضعها هذا الموضع ، وما كان نحلها ابنته . الأمر الذي أغضب السيدة الزهراء . وفي هذا السياق عُقد مجلس عام حضرته بنفسها ، وألقت خطبتها موضوع الحديث .

إن المتمعّن في المضمون الغني للخطبة ليخرج بمغزى أساسي ، هو أن السيدة لم تكن في سبيل المرافعة عن حق شخصي ، بل عن جملة مبادئ مقرَّرة ، اختراقها هو في معنى الطعن بما هو منصوص عليه وعقيدة أساسيّة وحكم محل إجماع .

ـ المنصوص عليه : أن الأنفال هي ملك للرسول (ص) ، له أن يضعه حيث يشاء .
ـ العقيدة الأساسيّة : أن عمل الرسول حجّة .
ـ الحكم المُجمَع عليه : أن الناس مُسلّطون على أموالهم . ولا يجوز للسُّلطة انتزاع

هذا الحق منهم إلا لمصلحة عامّة ثابتة ، مع قيود أُخرى ليس من الضروري تفصيلها .

من هنا نعرف أن انتزاع فدك من مالكتها الشرعيّة كان سابقة في غاية الخطورة . خصوصاً وأنه حصل في الأيام الأولى لاستلام أول خليفة لرسول الله (ص) السّلطة . الأمر الذي منحه معنى العنوان لِما بعده ، ويُبرّر حالة الغضب الشديد للسيدة الزهراء (ع) . وفي هذا السياق جاء ت الخطبة تذكيراً بمبادئ الإسلام ، لأنها هي التي كانت في خطر ، وليست المزرعة .

هو ذا " معنى فدك " . إنه إشارة إلى نهج سياسي ـ فكري ـ شرعي . وما فدك إلا عنوا ن لقضيّة ، وليست مجرّد مزرعة . لا لشئ إلا لأنه صادف أن السلطة اختارتها للإعلان عن أفكارهاوخطتها . ولا ريب أن الذي اختار للحديث عنوان " في معنى فدك " ليس غير، كان يُعبّر عن إدراكه لهذه الحقيقة . والأمر نفسه يمكن قوله على اهتمام السيدة زينب (ع) بروايتها .

٢ ـ .... عن زيد بن علي ، عن أبيه علي بن الحسين ، عن عمته زينب ، عن فاطمة قالت : " دخل رسول الله عند ولادة ابني الحسين ، فناولته إياه في خرقة صفراء ، فرمى بها وأخذ خرقة بيضاء فلفّه فيها ، ثم قال ، خذيه يا فاطمة فإنه الإمام أبو الأئمة ، تسعة من صُلبه أبرار ، والتاسع قائمهم " . رواه في (كفاية الأثر / ١٩٣) . والحديث بسند آخر... عن جعفر بن محمد ، عن محمد بن علي ، عن علي بن الحسين ، عن الحسين عن أمه فاطمة . النص نفسه ، لكنه في هذه الرواية الثانية ورد بصيغة الخطاب من السيدة الزهراء لولدها (عليهما السلام) (نفسه / ١٩٧) .

هذان أنموذجان ممّا أسندته زينب عن أمها . وهما يتصلان بمسألتين من صميم الإسلام كما اختطّه المولى سبحانه إذ بعث في الأميين رسولاً منهم . وما من شك أن رواية الحوراء لهما تأتي في السياق الذي ظهر منها حين حملت بعد شهادة أخيها سيد الشهداء (ع) عبء إيصال صوته بحيث تجاوبت به كل نواحي دار الإسلام .

(٨)

نختم بإيراد حديث يناسب ما بدأ نا به . وفيه يسأل السائل السيدة الزهراء (ع) :

هل نص رسول الله قبل وفاته على علي بالإمامة ؟
قالت : واعجباه أنسيتم يوم غدير خُم ؟
قال : قد كان ذلك . ولكن أخبريني بما أسرّ إليكِ .
قالت : أُشهِد الله تعالى لقد سمعته يقول ، علي خير مَن أخلفه فيكم ، وهو الإمام والخليفة بعدي ، وسبطيّ وتسعة من صُلب الحسين أئمة أبرار . لئن اتبعتموهم لوجدتموهم هادين مهديين . ولئن خالفتموهم ليكون الاختلاف فيكم إلى يوم القيامة .

صدق رسول الله